النصّ المعجز في تصوّر الخطاب النقدي القديم
إعجاز القرآن للإمام الباقلاني انتقاء

The miraculous text in the perception of the ancient critical discourse
-The Miracle of the Qur'an by Imam Al-Baqlani Selection-

أ.د/ عزوز زرقان
جامعة محمد البشير الإبراهيمي – برج بوعريريج (الجزائر)
zorganeazouz19@gmail.com

تاريخ الإرسال: **2023/12/20** تاريخ القبول: **2023/12/30**

ملخص:
تهدف هذه الورقة البحثيّة إلى الوقوف على أهّم المؤشرات النقديّة عند الناقد "الإمام الباقلاني" في معالجته لموضوع "النصّ المعجز"، الممثّل في القرآن الكريم من خلال ما أورده في كتابه "إعجاز القرآن" الذي يُعدّ أنفع ما كتبه في هذه المسألة النقدية التي شغلت بال الكثير ممّن سبقه أو أتى بعده. وقد ركّزت الدّراسة على المفهوم والماهية للنص المعجز كمنطلق للوقوف على الأسباب والعلل التي شكّلت هذا الموقف النقدي لديه، معتمدين رؤية منهجية وصفيّة تميل إلى التحليل والمناقشة وحسن التناول للوصول إلى حقيقة هذا الخطاب النقدي حول المسألة.

الكلمات المفتاحية: النص، الخطاب، النقد، القديم، الإعجاز.

Abstract:
This research paper aims to stand on the most important critical indicators of the critic "Imam Al-Baqlani" in his treatment of the issue -the miraculous text- represented in the Holy Qur'an through what he mentioned in his book "The Miracle of the Qur'an", which is considered the most elegant of what he wrote on this critical issue that occupied the minds of manyWho preceded it or came after it.The study focused on the concept and essence of the miraculous text as a starting point to find out the reasons and reasons that formed this critical position for him, adopting a descriptive methodological vision that tends to analysis, discussion and good handling to reach the truth of this critical discourse on the issue.

keywords: Text, Discourse, Critic, Ancient, Miraculous.

أجمعت كلّ المصنفات التاريخية والأدبية النقدية على حقيقة مقدّسة مفادها أنّ العرب حين سمعوا القرآن الكريم تأثّروا به تأثّرا بالغا، كونهم أدركوا روعة نظمه، فوقفوا منه موقف الإعجاب والذّهول والحيرة، ولا أدلّ على ذلك من قول عتبة بن ربيعة حين سمع من الرسول – صلى الله عليه وسلم– الأجزاء الأولى من سورة "فصّلت" حيث وصفه قائلا: "... والله ما هو بالشّعر، ولا بالسّحر، ولا بالكهانة... والله إنّ لقوله لحلاوة وإنّ أصله لعذق، وإنّ فرعه لجناة". فالكثير من أمثال هذه الرّوايات تتفق على بيان ما كان للقرآن من وقع في قلوب العرب، وفي توضيح أثره البلاغيّ في نفوسهم.

والذي لا شكّ فيه، أنّ نزول القرآن الكريم، وظهور الكثير من الدّراسات والمعالجات التي أُجْرِيَتْ حوله فيما بعد، كان له كبير الأثر على حياة العرب والمسلمين أدبيّا ونقديّا حيث يتجلّى ذلك بوضوح في انشغال النّقاد والدّارسين به، وقد كان هذا الانشغال على أساس اعتباره النصّ المعجز، يقول الدكتور محمد زغلول سلام: "منذ بدء الحياة الإسلامية أخذ القرآن الكريم مكان الصّدارة بصفة كونه النصّ الأدبيّ الأوّل لهذه الأمّة والكتاب المبين المعجز، هذا إلى كونه وحي السّماء، وأساس التشريع، والقانون المنظّم للسلوك، والمرشد الموجه إلى معالي الأمور..."(1)، فتصوّراتهم ونظراتهم للنصّ المعجز طغت على كلّ التصوّرات المتعلقة بنصوص الأدب الحاضرة حينها، حيث كان الشعر يمثّل السّلطة والحضور الطّاغي، بل هو صورة ثقافة ذلك الزّمن، لكنّ نزول القرآن الكريم سحب منه هذه السّلطة ليفرض هيمنة لا نظير لها ولا ندّ بفضل أساليبه، وحسن نظمه، وجميل تأليفه، وبهاء رونقه وقمّة إعجازه البياني وندرة صياغته ... إنّها صفات جعلت منه محور كلّ الدّراسات والمعالجات النقدية والبلاغية التي أخذت على عاتقها مهمة الكشف والتنقيب والإيضاح لسّر هذا البيان، وحقيقة هذا الإعجاز خصوصا وأنّه أتى على طريقة العرب في لغتهم ومذاهب نظمهم وتأليفهم، إلاّ أنّ القرآن الكريم ظلّ معجزا، بل وأبان عن عجز البشر عن مجاراة أسلوبه في تصريف وجوه الفصاحة والبلاغة ببناء مثير للدّهشة، وبتخيّر مفردات وأساليب لا تضاهى ولا تضارع بلغة غاية في الدقّة، وبمضامين أعجزت كلّ بليغ وفصيح.

وضمن هذا السياق تطلع علينا الكثير من الدّراسات التي أوْلت عناية فائقة بالقرآن والتي أفْنَتْهُ بحثا، وشرحا، وتفصيلا، وكان لهذه الدّراسات تجلّيات معتبرة في توجيه حركية النقد الأدبيّ والسّير به تطويرا واتساعًا وإحاطة، فكان أن حقّق النصّ المعجز الهيمنة المطلقة بفضل حضوره القويّ، فكانت له السّلطة على الساحة العلمية الثقافيّة العربيّة، جاعلا من النصّ الشعري عنصرا تابعا له بعد أن اعتلى سدّة الإجلال والقداسة ردحا من الزمن، مبقيا له فضاء لخدمته أو مقاربته، يقول الدكتور فاروق أحمد تركي: "فأيّة سلطة للشّعر تبقى في حدود خدمته للنصّ المعجز فقد تحوّل الشّعر كما يشير الكثير من الدّارسين من صاحب سيادة وسلطة إلى مجرّد خادم لنصّ سامٍ، نصّ تفرّد بأساليبه، وعدّه الدّارسون نمطا رفيعا وفريدا يتعالى على كلّ الأساليب والأنماط المعروفة، ومن هنا تحوّل الشّعر إلى مجرّد شاهد، فبعد أن كان الشعر هو النصّ المسيطر، والقرآن هو النصّ النّقيض، انعكس الوضع وأصبح القرآن هو النصّ المسيطر"[(2)]، إن هذا يشكل تحوّلا لافتا للمشهد الثقافي برّمته، فنحن أمام انتقال من نمط الشعر وما حواه من مضامين متنوعة مثلت الوعاء الثقافي الجاهليّ إلى الوعاء اللغوي الثقافي الجديد الممثّل في النصّ المقدّس المعجز، هذا الأخير الذي تعامل مع الظاهرة الشعرية بإيجابية وواقعية، فلا هو طمسه وأبعده، وإنّما صيّره خادما له وللمبادئ والقيم والمفاهيم الجديدة التي أقرّها ورسمها، ذلك أن هذا النصّ المعجز يحتاج إلى الشعر في تحديد جملة من الدّلالات لا يُهتدى إليها إلاّ بالشعر الذي صار أنيسا للقرآن، وبالتالي نرى أنّ النصّ المعجز حقق الهيمنة والسيطرة الكاملة على المشهد الثقافي، حيث صارت جميع النصوص تُقاس عليه، وليست بديلا عنه.

ويجرّنا هذا السياق للحديث عن التّغاير الأسلوبيّ بين النصّين، في جانب النّظم والصياغة وحسن التأليف، فالفرق بين كلا النصّين جليٌّ، هذا كلام بشر يليق بضعفهم وذاك كلام الله سبحانه يليق بجلاله وقدسيته، فإذا تبيّن لنا الفرق بين كلا النصّين أدركنا لماذا يتوجه النقّاد إلى الشّعر بالانتقاد وتتبّع الأخطاء وتصيّد الهفوات، والإشارة لمختلف هنّات الشعراء وانحرافهم، لأنّ هناك ثمة قصورًا في اللّغة والصّورة عند الشعراء، هناك نقص على مستوى البناء والتأليف والانتقاء والدّلالة الدقيقة، وهذا القصور تكشف عنه المقاربات النقدية البنّاءة، ولكنّ النصّ المعجز "يُخْضِعُ كلّ شيء له، ولا يخضع هو لأيّ شيء آخر

فلا غرابة إذا رأينا مبدأ فاعليّة اللّغة واضحا ... وفاعليّة اللّغة هي مبدأ وجوه النصّ وغناه واحتمالاته، هذه الاحتمالات لم تكن موضوع عناية جماعيّة في دوائر الشّعر، لأنّ الشعر خاضع لا سيّد..."[(3)].

إنّ الظّاهرة الشّعرية التي كانت تشكّل مكانة مهمة في التاريخ العربيّ، والتي استمدّت وجودها من طبيعة الحياة العربيّة، والتي رضيت أن تكون العلامة المميّزة لذلك العصر، سرعان ما تلاشت كفكرة وكتصوّر بنزول القرآن الكريم، الذي تمكّن من العقل العربيّ في فترة وجيزة، وظهرت مسألة جديدة تمثّلت في تحديد طبيعة العلاقة الرّابطة بين لغة القرآن الكريم ولغة العرب، ممّا شكّل فضاءات فكرية للحوار والمناقشة تمثلت في اقتراح إجابات تُفضي إلى تحديد القاسم المشترك بينهما، أو تحديد طبيعة النّظام الذي يتحكّم في صياغة كلّ منهما بغرض الوقوف على حقيقة النظم، وجمالية البناء، يقول الإمام الشافعي (204 هـ) في مثل هذا السياق: "خاطب الله سبحانه بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها، وكان ممّا تعرف من معانيها: اتّساع لسانها"[(4)]، فالشافعي تنبّه إلى أنّ ثمّة قاسما مشتركا يربط بين العربية، ولغة القرآن الكريم. ذلك أنّ لغة القرآن الكريم هي لغة العرب التي كانوا بها يتكلمون، وبها ينظمون، وبألفاظها يصفون، ويهجون، ويخطبون ... فمقولة الشافعي هي مقاربة بين النصّين الجاهلي والنصّ المعجز لفظا ومعنى، في إشارة دالّة على أنّ العربية لغة القرآن الكريم تفصيلا ودلالات: ومقولة الشافعي تتفق مع مقولة أبي عبيدة (210هـ)، حيث يقول: "في القرآن مِثْلُ ما في الكلام العربيّ من وجوه الإعراب، ومن الغريب والمعاني"[(5)].

إنّ سلطة النصّ المعجز فرضت بطريقة معيّنة على الشعراء والمبدعين الخضوع بنظمهم لأشعارهم لما يتطلبه النصّ المعجز، إنّه المنطق الجديد الذي فرضته الظاهرة القرآنية، فالنصّ المعجز صار مسيّرا، ومحدّدًا لطبيعة ما يُنْتَجُ ويُبْدَعُ من خلال تقديم تصوّر شامل لحقيقة الإبداع والصّورة التي يجب أن يأخذها ويسير وفْقا لما تحدّده من معايير ومقاييس، فالقرآن الذي لم يطمس الشّعر هذّبه ونقّحه وغربله حتى يتماشى وحاجات البشر المنطقية الواقعية حيث لا ضرر ولا ضرار، فقد نُقل الشعر من إطار القبيلة وما عُرفت به إلى إطار الدّين وما يدعوا إليه، فصارت العلاقة التي كانت بين الشاعر والقبيلة إلى علاقة بين الشاعر والدّولة وبذلك فإنّ كل ابتعاد عن النصّ الديني مرفوض جملة وتفصيلا، وكلّ اقتراب منه مرغوب فيه، وبهذه الطريقة فرض النصّ المعجز هيمنته وسيطرته الكاملة على المشهد الثقافيّ العربيّ.

إنّ للنصّ المعجز خصوصيّات كثيرة تميّزه تماما عن النصّ الأدبيّ المعهود، فالأوّل له فضاء واسع، ومجال لا حصر له ولا حدّ، على مستوى البناء والدّلالة، تحسّ أنّه نصّ متكامل البناء والانسجام وله من العمق ما لا يمكن تصوّره، يحكمه الاعتقاد الرّاسخ واليقيني أنّه فعلا له صفات الكمال المطلق، في حين نجد النصّ الأدبيّ يدور في فلكه، يأخذ منه، ويتفاعل معه، لكنّه يتحدّد عند لحظة ينتهي فيها ليبدأ نص جديد.

وانطلاقا من هذا التصوّر أخذت الدّراسات النقديّة الإعجازية في الانتشار والذّيوع لتفتح آفاقا واسعة لدراسة النصّ والانطلاق منه، فأخذت على عاتقها مقاربة النصّ نقدا وتشريحا وتحليلا ومناقشة، جهود معتبرة كان لها الأثر البالغ في دفع مسيرة الحركة النقدية إلى التطوّر الفسيح والعميق في معرفة النصّ المعجز والنصّ الأدبيّ وحقيقة العلاقة التي تربط بينهما، فقد نشأ عن الدّراسات الإعجازية وَعْيٌ "بالخصائص المميّزة للنصّ القرآني، وفي الوقت نفسه وعي بما يميّز الخطاب الشّعريّ أو النثر عامّة"(6).

فمسألة الإعجاز أساسا انطلقت من فكرة أنّ الإعجاز كامن في النصّ ذاته مع استبعاد التصوّر القائل بأنّ الإعجاز حاصل من خارج النصّ، وبالتالي فإنّ الإعجاز صار مزيّة للنص الذي قوامه التراكيب والبُنى التي تربطهما علاقات جدّ متشابكة. والجدل النقدي حول هذه المسألة غير خافٍ، لكنّ الذي نسجّله بعناية هو أنّ هذه الدّراسات الإعجازية كان لها الفضل في توجيه الحركة الإبداعية الشّعرية، ذلك أنّ النقّاد أنفسهم صاروا يشتغلون بدراسة قضايا الإعجاز وتطبيقها على النصّ الشّعري، بل وذهبوا إلى اشتراطها كمقاييس لعملية الإبداع، وهذا ما نجده مرسوما في دراسات النقد القديم، حيث اهتمّ هذا الأخير بخدمة الأغراض الدينيّة، بخاصّة قضية الإعجاز التي أخذت اهتماما أكبر، وانشغالا أوسع على حساب النواحي الأدبيّة.

إنّ هذا الاهتمام بالنصّ المعجز جعلهم يقدّمونه على ما عداه، إيمانا منهم بسلطته وهيمنته، فالنصّ المعجز عندهم هو دائما في قمّة الفصاحة والبلاغة والبيان إذا ما تمّت مقارنته بالنصّ الأدبيّ.

كما كان النقاد يرون في النصّ المعجز الكمال المطلق، لم يكونوا ليقبلوا بنقده ولا الكلام عنه يقول الدكتور عز الدين إسماعيل: "... فما يردُ فيه فهو الصّحيح دائما، وهو القمّة دائما، وإن خالف القاعدة فهم كثيرا ما يُجرُون المقارنات بينه وبين إنتاج شعريّ ليبيّنوا أنّه في درجة ترتفع على كلّ شعر، وأنّه لا يمكن مجاراته أو اللحاق به لأنّه يعجز كلّ مُحاولٍ"[7]، فالظّاهر من أقوال النقاد، أنّ النصّ المعجز قد أثّر وبشكل لافت للانتباه على مسار الدّرس النقدي العربيّ القديم، بسبب ما ورد عليه من أسلوب بارع، وصياغة مميّزة وتصوير فائق، وتشبيهات مع استعارات رائعة، مع حسن الربط، وجمال الانسجام، وبهاء النظم، وعمق التأليف، ووضوح العبارة، وفصاحة الكلمة، وسحر العبارة ... كل ذلك جعل العلماء والنقّاد يستشهدون بصياغته وتشبيهاته على كلّ جيّد، بل وصارت شواهد القرآن الكريم في مقدمة الشواهد الأدبية في مختلف مصنفات النقد والبلاغة على حدّ سواء.

ومن النقّاد الأفذاذ الذين وقفوا على حقيقة النصّ المعجز مطولا، وكانت له رؤية شبه مستقلة عن غيره، نجد الإمام الباقلاني صاحب مصنف "إعجاز القرآن"، وهو الذي اعتنى بدراسات بيان القرآن، وكان من علماء الأشعرية وخطبائهم، يميل إلى الاعتزال. لقد نشأ الباقلاني خطيبا بارعا في الجدل حول مسائل علوم القرآن وبيانه. وقد عرف بين مترجميه بكتبه الكلامية في الردّ على الطّاعنين والمخالفين، حيث الكثير من مصنفاته تحمل هذا الطّابع، وتتجلى فيها شخصيته القويّة، وعلى رأس هذه المصنفات كتاب "إعجاز القرآن" الذي شاع وذاع ذكره بين النّاس، لأنّه مصنّف جمع فيه بين دراسة مسألة الإعجاز والطّابع الأدبيّ، فهو لم يدرس الإعجاز من الوجهة الكلامية فحسب بل تعرض للناحيّة الأدبية البيانيّة والأسلوبية من خلال ما أورده من نصوص أدبية شعرية ونثرية ممزوجة بالنقد والتحليل والدّراسة.

مصنّف الإمام الباقلاني في الإعجاز، مثّل منهجية عميقة في تاريخ التأليف عند العرب تجسّدت في فكرتين: الأولى: البحث في الإعجاز، والثانية حضور النقد البلاغي، هذا فضلا عن اعتماد المؤلّف على منهج نقدي ذي رؤية وصفيّة تحليلية، اتخذت من القرآن الكريم سندا ومعينا، وكذا الخطاب الأدبي عند العرب، والكثير من المدوّنات البلاغية والنقدية، بمعنى أنّه كتاب متكامل حافل برؤى الإعجاز والنقد معًا.

فقد انطلق في دراسته لقضية الإعجاز القرآني من اعتقاد مفاده أنّ القرآن الكريم معجز بنظمه، متفوّق بتأليفه، له بلاغة أعجزت البشر عن مُداناتها أو الاقتراب من نسجها، ففكرة النّظم عنده تستند إلى الخصوصيّة التي تفرّد بها الأسلوب القرآني وصياغته ونظمه عن غيره من الأساليب المنسوجة المؤلفة.

إنّ الباقلاني ينطلق من فكرة عقد المقارنة والموازنة بين نوعين من النّصوص: نصّ معجز يمثّله القرآن الكريم، ونصّ شعريّ بشري، الأوّل يليق بعظمة وقوّة وقدسيّة قائله والثّاني يليق بضعف وانكسار مؤلفه. وقد مضى في هذه المقارنة مُستدعيا نصوصا شعريّة لفحول الشّعراء قصْد الوقوف على إثبات حقيقة ما يذهب إليه ويؤمن به مِنْ أنّ النصّ المعجز متفرد بنظمه وأسلوبه مقارنة مع غيره من النّصوص، وبالتالي يكون النصّ القرآني في أعلى المراتب وأشرفها وأسماها.

ولكونه يؤمن بسلطة النصّ المعجز وتفوّقه على كلّ نصّ، فإنّه بالمقابل يقلّل من شأن النصّ الشّعريّ، فأمر الشعر عنده سهل هيّن قريب، يستطيع كلّ مثقّف متشبّع بالمعرفة الشعريّة أن يسلكه، وبالتالي هو مقدور عليه لدى أيّ شخص توفرت لديه ظروف وآليات نظم الشّعر، ولذلك فالباقلاني كان قد رأى أنّ في لغة القرآن وجوها بلاغيّة ممّا هي موجودة في لغة العرب، فالقرآن الكريم "لا ينفكّ ... عن فنّ من فنون بلاغتهم، ولا وجه من وجوه فصاحتهم"(8)، وهذا الكلام هو في الحقيقة إقرار صريح باشتمال القرآن الكريم على فنون البلاغة العربيّة. وفي مقام آخر نجده يقول: "إنّ هذا البديع ليس فيه ما يخرق العادة ويخرج عن العرف، بل يمكن استدراكه بالتعلّم والتدرّب به والتصنُّع له كقول الشعر"(9)، وهذا في معرض حديثه عن البديع. وهذا معناه أنّ صناعة الشعر سهلة وقابلة للتعلّم، يتمكن منها كل مجتهد أحسن التدرّب والممارسة، على عكس النصّ المعجز الذي يخرج عن دائرة الممكن لكونه متفرّد بنظمه وأسلوبه فهو "خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومُباينٌ للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختصّ به، ويتميّز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد"(10).

من الأمور الأشدّ ظهورا في دراسته لقضية الإعجاز أنّه أقام موازنة بين النصّ الشعريّ والنصّ المعجز، أي بين "الكلام الصادر عن الربوبيّة، الطالع عن الإلهية ... شيء من الشّعر

المـُجْمَع عليه..."(11)، وهذا لغرض تبيان أوجه النقص التي تعتري الشّعر، ويدلّل في الوقت ذاته على رُتبته، وإيضاح مواقع الخلل فيه، كلّ ذلك بمقصد إثبات تفوّق النصّ المعجز على النصّ الشّعري، بمعنى إثبات منطق التفاوت بين كلا النصّين، فالمتبصّر بدقة في النصّ المعجز يدرك بصورة جليّة أنّ وجوه الخطاب مهما تغيّر شكلها فإنّها لا تفقد قوّة الأسلوب وتماسكه وانسجامه وتناسق ألفاظه ومعانيه، إذ لا وجود لعنصر الغرابة في العناصر السّالفة الذكر، أو على مستوى الفكرة، يقول الباقلاني في هذا الشأن: "ومنها أنّه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرّف البديع، والمعاني اللّطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة على هذا الطّول وعلى هذا القدر، وإنّما تُنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها ما نبنيه بعد هذا من الاختلال، ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف، ويشملها ما نُبديه من التعمّل والتكلف وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسبا في الفصاحة، وهو أنّ عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرّف إليه من الوجوه التي يتصرّف فيها ... ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلّق يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور ... ومتى تأمّلت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره حسب الأحوال التي يتصرّف فيها"(12) فالظاهر من هذا الكلام، أنّ التفاوت موجود في الشعر، ولا وجود له في النصّ المعجز فالباقلاني تسيطر عليه فكرة الشعر على أنّه صناعة، ومن المنطقي أن تتفاوت صناعة الشعر بين الجودة والرداءة من شاعر إلى آخر، أو عند الشاعر الواحد، بل إنّ من الشعراء من يحسن غرضا دون غيره، قد يجيد في الرثاء ولا باع له في الهجاء، قد تعلو كعبه في المدح، ويفتقر إلى البراعة في الوصف، وبالتالي فإنّ التفاوت في الشعر منطقي، بل ويكاد يكون متواجدا على مستوى جميع أهل هذا الفنّ. وهذه الفكرة تتضح أكثر في توجّهه للدّراسة التطبيقية العملية، وبالتالي جعل منها محورًا للمقارنة والموازنة وإبانة الفروق بين النصّ المعجز والنصّ الشّعري، حين راح يستعرض القصائد الشعرية المنتخبة، والتي تعكس فنون الأدب وصوره عند العرب، وهي نصوص مزيج بين الجاهليّ "امرئ القيس" وبين العباسي "البحتري" وغيرها من القطع الشعرية التي تشكل صورة فنيّة ناصعة، ليخلص بعد ذلك أنّه لا روعة تقابل روعة النصّ المعجز، ولا بهاء ولا حسن في الصياغة والأسلوب والنُظم والتأليف تعلو

على النصّ المعجز، فأنّى لمواصفات النصّ المعجز أن يقابلها مواصفات النصّ الشّعري رغم ما يطفح به من براعة بيان وحسن فصاحة، وجميل تصوير. يقول الإمام الباقلاني "ونعمد إلى شيء من الشّعر المُجْمَعِ عليه فنُبيّن وجه النّقص فيه وندلّ على انحطاط رتْبتِه ووقوع أبواب الخلل فيه، حتى إذا تأمّل ذلك وتأمل ما نذكره –من تفصيل إعجاز القرآن وفصاحته وعجيب براعته– انكشف له واتضح وثبت ما وصفناه لديه ووضح، وليعرف حدود البلاغة، ومواقع البيان والبراعة ووجه التقدّم في الفصاحة"[13].

فهذا القول يحمل في ثناياه تحديدا دقيقا للهدف المقصود والمراد من الدّراسة، لقد جعل الباقلاني النصّ المعجز نُصْبَ عينيه، وبدأ عملية الكشف عن جماليات التأليف وخصائص البيان وبراعته، ومميّزات الفصاحة وأحسن هيآتها، ليضع حدود البلاغة، ويعرّف القارئ بالنصّ المعجز، لماذا كان معجزا؟ مقارنة مع النصّ الشّعري، القابل للتفاوت، والكثير الخلل، والمنحطّ تأليفا على حدّ وصفه.

فالشعر الذي اختاره لإحداث المقارنة لم يكن اعتباطيّا بل إنّه يدلّ على دقة نظر الباقلاني، وحسن تقديره لبلاغة وفصاحة كلّ من امرئ القيس، والبحتريّ، ذلك أنّ شعرهما بلغ مبلغ عظيما، فضلا عن أنّ جلّ النقّاد شهد لهما بالجودة والتفوق. لقد انتقى عيون الشعر وقلائده، وتناوله بالنّقد والدّراسة والتعليق والفحص، مبديا مواضع التفاوت، ومبرزا مكامن الخلل، مسلّطًا آلة نقده على البيان والأسلوب والتأليف والنّسج، فإذا بلغ ما أراد تبيانه أسقط شعرهما بأكمله، وقد أوضح منهج وطريقة عمله تلك في كتابة "إعجاز القرآن" حين قال: "وإذا أردنا تحقيق ما ضمناه لك، فمن سبيلنا أن نعمد إلى قصيدة متفق على كبر محلّها، وصحّة نظمها، وجودة بلاغتها، ورشاقة معانيها، وإجماعهم على إبداع صاحبها فيها مع كونه من الموصوفين بالتقدّم في الصّناعة، والمعروفين بالحذق في البراعة فَنَقِفُكَ على مواضع خللها، وعلى تفاوت نظمها، وعلى اختلاف فصولها، وعلى كثرة فضولها، وعلى شدّة تعسّفها، وبعض تكلّفها وما تجمع من كلام يُقرن بينه وبين كلام وضيع وبين لفظ سوقيّ يُقرن بلفظ ملوكي وغير ذلك من الوجوه التي يجيء تفضيلها ونبيّن ترتيبها وتنزيلها"[14].

إنّ القارئ لهذا الكلام النقدي لا يملك إلاّ أن يشهد للرجل بإحاطته النقدية الشاملة وتوسّعه العلمي أثناء الدّراسة، إنّه منهج يمكن تصنيفه ضمن الدّراسات النقدية الأسلوبية الحديثة، فالنظر في مسألة تفاوت النّظم، والوقوف على اختلاف الفصول، وإيضاح مواقع التعسّف والتكلّف، وإبراز مواضع الخلل، والفصل بين ما هو وضيع من الكلام وضدّه ورصد مختلف عمليات البيان والتصوير، يعتبر جهدًا فذًّا بارعا يستحق الإشادة لأنّه استطاع من خلاله إثبات بما لا يدع لُبسا أنّ القرآن نصّ معجز بحقّ، وأنّ صفة الإعجاز التي هي أجلّ صفاته ليست مجرّد كلامٍ يُلقى، وإنّما هي حقيقة قد يقف عليها كلّ دارس نحا هذه الطريقة، ونهج هذا السبيل. فكلام البشر مهما علت براعة نظمه، وسمت عجائب أسلوبه وارتفعت عظائم تأليفه، وارتقت أدوات صناعته لن يُوفق صاحبه لبلوغ النصّ المعجز. فصحّة نظم القرآن الكريم، وشدّة تفرّده يُسْتدلُّ بها على فساد النظم وركاكة الأسلوب عند الشعراء، وبالأخصّ إذا كان هذا الشاعر أو ذاك من المشهورين المشهود لهم بالجودة والتفوّق.

إنّه ورغم ما قيل عن الباقلاني في سرعة حكمه على الشعراء، وغايته في الإقلال من شأن ما ينظمون، إلاّ أنّنا نراه دارسا منطقيّا يعتمد الحجة والبيّنة للإقناع، فما ذهب إليه من آراء وإن كانت تنسف شعر من درسهم نسفا، وتجعله صفْصفا، إلاّ أنّها كانت السّبيل الأوحد لإثبات أن النصّ القرآني هو نصّ معجز بناء على حقائق علمية، ليس للهوى فيها سبيل، ولا للانتصار الشخصي نيّة أو إرادة، لأنّها تناوُلٌ علميٌّ منصِفٌ يسعى لتحقيق البغية الأولى من تأليف كتابه، إنّه التأكيد على إعجاز النصّ القرآني، وأنّه يعلو على كلّ بيان وفصاحة ونظم وتأليف.

ونشير في هذا المقام إلى أنّ الذي اعتمده الباقلاني في دراسته لامرئ القيس هو عينُه الذي اعتمده مع البحتري أو أبي نوّاس أو ابن الرّومي وغيرهم من الشعراء، ليُذكّر أنّ الشّعراء بعضهم من بعض متقاربون في فنّهم وإن حصلت فيه بعض المنافسة لتحقيق بعض المآرب والأطماع، إذ يقول في هذا الشأن: "ونحن نعمد إلى بعض قصائد البحتري فنتكلّم عليها كما تكلّمنا على قصيدة امرئ القيس، ليزداد الناظر في كتابنا بصيرة، ويستخلص من سرّ المعرفة سريرة، ويعلم كيف تكون الموازنة وكيف تقع المشابهة"(15).

وتلك –لعمري– هي ثمرة الدّراسة النقديّة التي تمكّن صاحبها من الوقوف على الفرائد والفوائد، إنّها الدّربة والممارسة والمِران التي تعرّفنا بحقيقة الموازنة، وصورة المشابهة، كما أشار إليها النّاقد.

فمثلما قلّل من شأن شعر امرئ القيس، نراه يُعيد الكرّة مع البحتري، حيث لم يكن بريئا بل تحيّز للنصّ القرآني المعجز الذي لا يعدله نظم بعد أن أصدر أحكاما نقدية على شعر البحتري تقلّل من شعره، وتذمُّهُ وتُعيبُهُ وتُهينُهُ أحيانا أخرى، لقد كانت قراءة نقدية شبيهة بقراءته لامرئ القيس، التي أبان فيها عن التفاوت، ومواقع الخلل، ومكامن الزّلل. قراءة تدلّ على أنّ الباقلاني ماضٍ في فكرته، ومُصِرٌّ على رؤيته في جعل النصّ الشّعري نصّا بشريّا يحوطه النقص، ويُوسمُ بالخلل ولا سبيل لأن يعادل أو يناظر النصّ المعجز في شيء حتى وإن أخذ من بلاغته ولبس من بعض لباسه.

إنّ المتفحص في كتاب "إعجاز القرآن" يدرك مدى عمق تفكير الباقلاني وقوة إعمال الذكاء في التحليل لجملة المعطيات التي بين يديه، فلقد ذكر النظم القرآني بوجه عام وهو تأليف الألفاظ بعضها إلى بعض، وذكر أسلوب القرآن أو طرق التعبير فيه، وقال إنّه مختلف في كليهما عن الكلام المعتاد، ثم بحث فنون القول عند العرب فقسّم كلامهم الفنيّ إلى وجوه خمسة، لإحداث الموازنة، وهي: الشعر، والكلام الموزون غير المقفّى، والكلام المعدّل المسجع، والقول المعدّل الموزون غير المسجع، والمرسل.

لقد جعل السّجع قسما من أقسام القول، وهو تقسيم دقيق –كما يراه النقاد– "لأنّه خرج بالسجع عن النثر المرسل، وعن الكلام الموزون غير المقفّى، والمقفى غير الموزون ووضعه بين المعدّل الموزون غير المقفى، والمعدّل الموزون غير المسجع يقصد إلى جعل الكلام المعدّل المسجّع يجري مجرى الموزون على وزن ما. ولكنّه غير مُطّردٍ إطراد المقفى الموزون، أو الموزون غير المقفى، خارج كذلك عن نوع من الكلام الفنيّ لا يشبه السّجع، ولكن قد يقع فيه منه، ولعلّ فيه تقع الخطب والمقالات الفنيّة ثم المرسل، وهو المطلق الخالي من كلّ وزن وقافية..."(16).

وعمق الفكرة فيما سبق من هذه التقسيمات وغيرها، هو الوقوف على النّظم وعلى الأسلوب عند العرب، ومدى ما بلغته عقولهم في مجال إحكام الكلام بحسن السبك والرّبط وحسن التأليف، وقوة الانسجام، وجمال الصياغة، فتحديده لهذه الأنواع هو ضرب من الوقوف على طريقتهم في الكلام ونظمه، ولذلك نجد له عن الصّنعة إشارة في الأقسام الأربعة الأولى المتتالية فيسمى السجع "الكلام المعدل المسجع"، والنوع الرّابع "المعدل الموزون غير المسجع". كل ذلك ليصل إلى مقصد عظيم وهو أنّ النصّ المعجز يتميّز في تصرّفه عن أساليب الكلام المعتاد، ذلك أنّ الطّرق التي يتقيّد بها الكلام الذي "لا يتعمّل ولا يُتصنّع له". إنّه يرى النصّ المعجز خارجا عن كلّ تلك الأقسام، وأنّه في مجمله له تفرد وتميّز، فهو ذو طابع خاصّ حاصل فيه جميعه، يقول: "... فهذا إذا تأمّله المتأمل تبيّن بخروجه عن خصوصيّة ترجع إلى جملة القرآن وتميّز حاصل في جمعه"[(17)].

إنّ ما يذهب إليه الباقلاني في مختلف تصوّراته وآرائه إنّما يرتبط ارتباطا وثيقا بما استقاه من الفكر الأشعريّ الذي جاهر القول به، والأشعريةُ على اعتقاد فكري يُحدث فصلا بين بلاغة النصّ المعجز، وبلاغة الشعر أو النثر، وقد سبق للخطابي (388 هـ) أن وضّح القضية حين قال: إنّ "البلاغة التي اختصّ بها القرآن الفائقة في وصفها سائر البلاغات"[(18)]، فهي البلاغة التي لا تضاهيها بلاغة البشر، ومعناها يتميّز من سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة، أي البلاغة المعروفة. وهذا يعني، والكلام للخطابي أيضا: "أنّ الذي يوجدُ لهذا الكلام من العذوبة في حسّ السّامع، والهشاشة في نفسه، وما يتحلّى به من الرونق والبهجة التي يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصّنيع في القلوب، والتأثير في النّفوس فتصلح من أجله الألسن على أنّه كلام لا يشبه كلام"[(19)]، أي أنّه لا يشبه كلام البشر.

ممّا سبق يتضح أنّ الإمام الخطّابي، قد اختار لنفسه السير على مسلك الأشاعرة متبعا فكرهم وعقائدهم، والأشاعرة يفصلون بين بلاغة النصّ المعجز، والبلاغة العربية المنثورة في شعر العرب، والمبثوثة في نثرها أيضا، فبلاغة النصّ المعجز عند الأشاعرة رفيعة عالية فائقة في بنيتها ودلالتها، لأنّها تنبع من لدن المولى سبحانه الذي لا يمكن أن يدانيه أحد، وهذا هو سرّ الخصوصيّة والتفرّد والاختلاف عن بلاغة البشر.

ولأنّ الإمام الباقلاني أشعريّ العقيدة، فإنّه يذهب إلى الرأي ذاته، حيث يرى أنّ بلاغة النصّ المعجز ليست من جنس بلاغة البشر، ولذلك هو يعتبر القرآن بأكمله نصّا معجزا متفردا بنية ودلالة، بحروفه وتراكيبه ومعانيه.

فهو وإن كان يرى أنّ مُدْرك الإعجاز يجب أن يكون "متناهيا في معرفة وجوه الخطاب وطرق البلاغة، والفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة"[20]، لكنّه لمْ ير في الشّعر سوى خطابا مفكّكا "وأنّ هذه الرّوائع على قيمتها تحتوي على الغثّ والرّكيك والسّفساف الشيء الذي تبرّأ منه القرآن"[21]، وعند الباقلانيّ "هيهات أن يكون المطموع فيه كالمأيوس منه وأن يكون اللّيل كالنّهار، والباطل كالحقّ، وكلام ربّ العالمين ككلام البشر"[22].

إنّ تفكير الإمام الباقلاني يرفض بالأساس وجود أيّ صلة بين النصّ المعجز والشعر –كما أسلفنا– تنزيها له، فهو يفقه حقيقة ما وجّهت إليه الآية الكريمة في التنزيل، والتي نفت الشعر عن القرآن ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُون﴾[23].

كما يرى أن لا يكون الكلام شعرا إلاّ إذا قصد المبدع إليه لا إلى غيره فـ "إنّ الشّعر إنّما يطلق، متى قصد القاصد إليه على الطريق الذي يُعتمّد ويُسْلك ولا يصحّ أن يتفق مثله إلاّ من الشعراء، دون ما يستوي فيه العاميّ والجاهل والعالم بالشّعر، واللّسان، وتصرّفه، وما يتفق من كلّ واحد"[24]، فالقصد المشار إليه إحالة، وإشارة إلى جنس الشّعر، ومن دونها "يفارق أمر الشّعر: لأنّه لا يجوز أن يقع في الخطاب إلاّ مقصودًا إليه، وإذا وقع غير مقصود إليه، كان دون القدر الذي نسمّيه شّعرا"[25]، أي أنّ "صورة الشّعر قد تتفق في القرآن وإن لم يكن له حكم الشّعر"[26]، ولو قال قائل والكلام للباقلانيّ "في القرآن كلام موزون كوزن الشعر وإن كان غير مقفى"[27]، كان جوابه "ليس في القرآن من الموزون الذي وصفناه... أنّ القرآن خارج عن الوزن الذي بيّنا"[28]، ويدلّ الباقلانيّ برأيه هذا فيما أشار إليه عند كلامه عن معلّقة امرئ القيس لاستهجانه الشّعر وإن كان صادرا عن فحل من فحول العربيّة، فمعلّقته بحسب رأيه "تردّدت بين أبيات سوقيّة ومُبْتذلة وأبيات متوسطة وأبيات ضعيفة مرذولة، وأبيات وحشيّة غامضة مستكرهة، وأبيات معدودة بديعة"[29].

فالكلام السّابق للباقلاني في مختلف ما طرح من أفكار، إنّما هو إقرار منه وترسيخ لمسائل المدرسة الأشعرية، والتي كانت وراء فهمه النقدي لحقيقة النصّ المعجز في مقابل النصّ الشّعري، ما جعل الكثير من النقّاد يتحاملون على آرائه حول الشعر وذمّه له، في معلّقة امرئ القيس، وما وظفه من بقيّة القصائد والأشعار ليكشف عن التفاوت الحاصل فيها قياسا بما في النصّ المعجز.

وخلاصة القول أنّ الباقلانيّ أراد بهذا التصوّر الدقيق، وهذه الرؤية المتفرّدة للنصّ المعجز، أن يجعل الشّعر في المرتبة الأدنى، وأنّه مهما سما وبلغ وارتفع بلاغة وفصاحة بنية ودلالة، فإنّه لا يمكن مقاربته مع لغة النصّ المعجز، وهذه النتيجة التي توصّل إليها هي في الأساس نابعة من تأثير الفكر الأشعري الذي انتشر بكثرة في مختلف مقولاته النقديّة، هذه المقولات التي فيها حدّد آراءَهُ النقدية الخاصة باللّغة والأدب، ليبقى في منظوره أنّ النصّ المعجز له خصوصيات، فالعرب لا تمتلك مثل فصاحته وغرابته وحسن تصرف بديعه، ولم تبلغ معانيه اللّطيفة، وفوائده الغزيرة، وحكمه الكثيرة، وتناسبه البلاغي الرّاقي، وتأليفه ونظمه المنسجم المتّسق، فهو عجيب النظم والتأليف، لا تفاوت فيه ولا تباين فهو يتفاوت تفاوتا بيّنا في الفصل والوصل، والعلوّ والنّزول، والتقريب والتبعيد، فلا يتغير معناه عند الانتقال من معنى لغيره، أو الخروج من باب إلى سواه، يجعل المختلف كالمؤتلف، فنظمه في ميزان البلاغة يخرج عن عادة كلام الإنس والجنّ، وألفاظه متوافقة اللّطف والبراعة ممّا يتعذّر على البشر النسج على منواله. فلفظه مختار وفصيح لكنّه لا يخرج عن ألفاظ اللّغة التي يتداولها الشعر وسائر الكلام العربيّ.

الهوامش والإحالات

(1)– محمد زغلول سلام: أثر القرآن في تطوّر النقد العربي، دار المعارف، مصر، ط3، ص10.

(2)– فاروق أحمد تركي الهزايمة: النصّ في النقد العربي القديم، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1 2019، ص162.

(3)– ناصف مصطفى: النادي الأدبي، جدّة، بين بلاغتين، ص396-397.

(4)– الشافعي: الرسالة، تح: أحمد شاكر، مطبعة مصطفى الباجي الحلبي، مصر، 1940، ص51-52.

(5)– أبو عبيده معمر بن المثنى: مجاز القرآن، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج1، ص08.

(6)– ناظم عبد الجليل: البلاغة والسلطة في المغرب، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 2002، ص120

7. عز الدين إسماعيل: الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر العربي، دار النصر للطباعة، القاهرة، ط2، 1968، ص187.
8. الباقلانيّ: نُكَتْ الانتصار لنقل القرآن، تح: د. محمد زغلول سلاّم، الإسكندرية، 1971، ص.112
9. أبو بكر الباقلاني: إعجاز القرآن، تح: السيد: أحمد صقر، دار المعارف، مصر، 1963، ص.111
10. المصدر نفسه: ص.35
11. المصدر نفسه: ص.126
12. المصدر نفسه: ص36-.37
13. المصدر نفسه: ص.126
14. المصدر نفسه: ص.156
15. المصدر نفسه: ص.219
16. محمد زغلول سلام: أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص.280
17. الباقلاني: إعجاز القرآن، ص.39
18. بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، 1976، ص22.
19. المصدر نفسه: ص.23
20. الباقلاني: إعجاز القرآن، ص.26
21. د. منير سلطان: إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، منشأة معارف الإسكندرية، ط3، 1986، ص243.
22. الباقلاني: إعجاز القرآن، ص.245
23. سورة الحاقة، رقم الآية: 41
24. الباقلاني: الإعجاز، ص.51
25. المصدر نفسه: ص.57
26. المصدر نفسه: ص.285
27. المصدر نفسه: ص.56
28. المصدر نفسه: ص.56
29. المصدر نفسه: ص180.